أيضا لن تكون دينية خالصة ، بل جامعة للطابع العلمانى ، والطابع الدينى . ومعنى هذا أن هذه الدولة سيكون من مهمتها الأصلية ، ما يتصل بالحياة الدينية ، أى أنها ستعمل من أجل تحقيق السعادة على الأرض وتحقيق السعادة فى الآخرة بالنسبة للمواطنين . ومن هنا نستطيع أن نحدِّد العلاقة بين الدولة والكنيسة . فالأخيرة تشرف على الأولى من أجل توجيهها إلى الحياة الآخرة . والدولة تساعد الكنيسة على تحقيق أغراضها . وظاهر من هذا أن النصيب الأكبر هو للكنيسة . ولكن يلاحظ مع ذلك أنه لم يشأ أن يفصل بين الاثنتين ؛ بل جعلهما مرتبطتين تمام الارتباط . فعن هذا الارتباط الوثيق يمكن أن يقوم السلام فى الأرض .

مشكلة الكليات

فى القرون الثلاثة الأولى من العصور الوسطى

من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر

أثارت مشكلة الكليات الكثير من البحث منذ البداية فى العصور الوسطى . واستمرت حتى آخر هذه العصور خصوصاً عند أوكام . وقد وضع المشكلة فى صورة ساذجة فرفوريوس الصورى فى « إيساغوجى » أو المدخل إلى مقولات أرسطو . فعرف اللاتينيون ذلك عن طريق ترجمة بوثيوس Boèce لايساغوجى .

وتنقسم هذه المشكلة إلى ثلاثة أقسام أو ثلاثة أسئلة :

(ا) هل للكليات ، أى الأجناس والأنواع ، وجود فى الخارج ! ؟ أم أن وجودها فى الذهن فحسب ؟

(ب) إذا كان لها وجود فى الخارج ، فهل هذا الوجود مادى أوغير مادى ؟

(حـ) إذا كانت توجد فى الخارج ، فعلى أى نحو يكون هذا الوجود : هل توجد وحدها ، أو توجد متصلة بالأشياء ؟

وكان طبيعيا أن يكون الموقف الذى يقفه الإنسان إزاء كل سؤال لايخرج عن أن يكون أحد المذهبين الفلسفيين اللذين تركتهما العصور القديمة ، وأعنى بهما مذهب أفلاطون ومذهب أرسطو. فالذين يقولون بوجودٍ خارجى للكليات هم أنصار أفلاطون ، إذ الأفراد عنده لها وجود أقل مرتبة من وجود الكليات التى توجد فى الخارج ؛ فى حين أن أرسطو يذهب إلى القول بأن الكليات

ليست إلا أسماء أى تجريدات ذهنية ، إنما الوجود الحقيقى هو وجود الأفراد الداخلة تحت الأنواع والأجناس .

ومن هنا نرى أن المشكلة ليست مشكلة منطقية نحوية كما قال بها فرفريوس الصورى ، دون أن يحاول الإجابة عن سؤال من الأسئلة التى ذكرت ، إنما هى أيضاً مشكلة ميتافيزيقية لأنها تتصل بالوجود من حيث ترتيب للوجودات . بل هى خاصة بالطبيعيات لأن البحث فيها خاص بالطبيعيات. ولما كانت الأفلاطونية ، سواء أكانت الأفلاطونية الخالصة أم المحدثة ، هى التى سادت فى القرون الأولى من العصور الوسطى إلى جانب سيادة مذهب أوغسطين الذى تأثر أيضاً بالأفلاطونية ، فقد كان طبيعياً أن يتخذ الفلاسفة موقف أفلاطون فيجعلوا للكليات وجوداً خارجياً .

كان أول من عنى بهذه المشكلة فى العصور الوسطى هو فريدجيز دوتور Frédégise de Tours الذى اتخذ موقفاً أفلاطونياً خالصاً ، فجعل الوجود الحقيقى هو وجود الماهيات أو الكليات حتى قال إن للظلمة وجوداً خارجياً ، فقد ورد فى أول سفر التكوين هذا القول : « كان على وجه الغمر ظلمة » إلا أن فريدجيز لم يتوسع فى هذا المذهب . أما الذى توسع فيه فهو سكوت أريجين ، إذ قال إن تقسيم أرسطو للمقولات هو تقسيم للوجود وليس تقسيما للحمل على الوجود . فالماهيات المتمثلة فى المقولات العشر إنما هى الوجود الحقيقى ، وينقسم تبعاً لها كل الوجود . وقال إن العالم يسير من الكلى المتقوّم إلى الجزئى ، ثم ينتقل من جديد من الجزئى إلى الكلى المتقوّم . فالخلق هو استخلاص أو استنباط من الكلى المتقوّم إلى جزئيات . بينما عودة الخلق إلى الطبيعة غير المخلوقة وغير الخالقة إنما هو على حد تعبير جون سكوت إريجين تحليل . وعلى ذلك فالوجود يطابق الماهية ، والوجود الحقيقى هو وجود الماهية . ومع ذلك نجد

فى القرن التاسع نفسه اتجاهات جديدة تخالف هذا الاتجاه الأول بعض المخالفة . وهذا الاتجاه الآخر يتفق مع مذهب أرسطو . ويظهر لنا ذلك أول ما يظهر فى الحواشى على « إيساغوجى » المنسوبة إلى رابان مُوَر ، ثم فى كتب هيريك دوسير Heiric d' Auxerre إلا أنه يلاحظ أن هذا الاتجاه الجديد كان ضعيفا فى أول الأمر ؛ وقد اتجه رمى دوسير تلميذ هيريك دوسير اتجاه أستاذه وسار على منوال سكوت أريجين ، ولو أنه لم يستخلص كل النتائج الميتافيزيقية والطبيعية كما فعل من قبل سكوت أريجين .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الموقف فى القرن التاسع كان فى جانب أفلاطون ، أى فى جانب الواقعيين ضد اللفظيين . وظلت الحال كذلك فى القرن العاشر ، ولو أنه كان خاليا من كل تفكير فلسفى ، ولم تظهر فيه غير شخصية واحدة تستحق الذكر هى شخصية جلبير Gilbert الذى كان وثيق الصلة بالعرب ودرس فى أسبانيا .

أما فى القرن الحادى عشر فقد أخذت مشكلة الكليات وجهة جديدة هى وجهة الاسميين المطلقية ضد الواقعيين المطلقين الذين وجدوا فى القرن التاسع . وصاحب هذا الاتجاه الجديد هو روسلان Roscelin . وُلِدَ فى مدينة كمپين Compiègne ودرس فى مدارسها حتى أصبح أحد رجال الدين . إلا أنه فصل بعد ذلك من وظيفته ، بسبب الموقف الذى وقفه فى مسألة الكليات والنتائج التى بناها على هذا الموقف . ولكنه أعيد بعد أن أعلن اتفاقه مع خصومه .

قال روسلان إن الماهيات ، أو الكليات ، ليست غير أسماء ، أو على حد تعبيره تسميات صوتية Flatus Vocis . « فالإنسانية » ليس لها وجود حقيقى بل الوجود الحقيقى هو وجود الأفراد . فبينما قال الواقعيون إن الجنس حقيقى ،

وإن النوع قسم من أقسام الجنس ، وإن للنوع أيضاً وجوداً حقيقياً ، نرى روسلان يقول إنه ليس للأجناس أو الأنواع وجود حقيقى .

وما يلفت النظَر فى هذا المذهب هو النتائج التى تترتب عليها فى ميدانى اللاهوت والفلسفة . ذلك أن روسلان لم يقنع بتطبيقه على المشاكل النحوية المنطقية ، بل طبقه على اللاهوت كذلك . فكانت النتيجة أن أصبح يقول بأن الله ثلاثة ، وليس واحداً . فكما أن الإنسانية لا وجود لها ، وكما أن أفراد الإنسانية هم وحدهم ذوو الوجود حقيقى ، كذلك يكون الحال بالنسبة لله : فليس هناك وحدة لجوهر واحد فى الله بل إن كلّ أقنوم جوهر مستقل ؛ وتبعا لهذا لا توجد إذن ثلاثة أقانيم من طبيعة واحدة ، بل توجد ثلاث طبائع أو ثلاثة جواهر ، وكل جوهر متقوّم بذاته مستقل عن الآخر . فليس من الممكن إذن أن نقول إن الأب هو الابن ما دام كلٌّ منهما مستقلا عن الآخر ومتقوّماً بذاته . وموضع التجديد فى أقوال روسلان هو جعله الأقنوم جوهراً . فبعد أن كانت الكنيسة الغربية تفرق بين الجوهر وبين الأُقنوم ، نرى روسلان يقول إن الاقنوم ليس له غير معنى واحد ، وهو أنه جوهر . وعلى ذلك فالأقانيم الثلاثة جواهر ثلاثة . ومن هذا التجديد ، فى لغة الدين على الأقل ، قامت الثورة عليه وعدّ من أصحاب البدع .

وعلى كل حال فإننا نرى منذ نهاية القرن الحادى عشر أن مشكلة الكليات قد وضعت فى وضعيها الحقيقيين : أحدهما موقف الواقعيين الذين يجعلون للماهيات وجوداً فى الخارج ؛ والآخر هو موقف الاسميين الذين يقولون إن الوجود الحقيقى هو وجود الأفراد ، أما الأجناس والأنواع فوجودها ذهنى . ونلاحظ أن الموقف الذى يقفه كل فيلسوف من هذه المشكلة يتأثر بالمذهب الذى تأثره الفيلسوف : فإن تأثر أفلاطون اتخذ موقف الواقعيين ، وإن تأثر أرسطو اتخذ موقف الاسميّين .

القديس أنسلم Saint Anselme De Cantorbéry

ولد القديس أنسلم فى مدينة أوستا فى شمال ايطاليا فى أواخر سنة ١٠٣٣ م. ودرس دراسته الأولى فى مدارس البندكتية . وتبعاً لهذه الدراسة الدينية أراد أن يكون أحد رجال الدين ، وساعدته أمه على هذا الاتجاه . أما أبوه فقد كان معارضاً أشد المعارضة فى دخوله فى زمرة رجال الدين . فلما ماتت والدته انصرف عن الدين ، واتجه إلى الحياة العامة . وعانى فى تلك الفترة التى انتقل فيها من الطفولة إلى الشباب ، أزمة عنيفة هى التى تُشاهد دائماً فى هذه السن عند رجال الفكر مهما تكن التربية والوسط الذى يُنَشَّئون فيه . وكانت نتيجة هذه الأزمة أن عكف أنسلم على الحياة المادية ، وانصرف عن كل تفكير فى الدين .

إلا أن هذا العهد انقضى بعد العشرين ، وبدأ أنسلم عهد التنقل . فى هذا الطور رحل إلى فرنسا ووصل إلى مقاطعة نورماندیا . وفى مدينة « بك » Bec من هذه المقاطعة التحق بالمدرسة الملحقة بدير « بك » . وكان رئيسها أحد مواطنيه وهو لانفران دوپاڤى Lanfranc de Pavie . فاستطاع أنسلم فى هذه المدينة أن يدرس دراسة منظمة . ثم كان لديه أن يختار ، بعد أن أتم هذه الدراسة ، أحد طرق ثلاثة : ـ فإما أن يكون راهباً منعزلا ، أو أن يحيا فى دير ، أو أن يعود إلى وطنه ليحيا نفس الحياة التى حياها من قبل فى أواخر الطور الأول . وقد اختار الطريق الثانى ، فعاش فى دير « بك » . وانتخب رئيساً لهذا الدير حينما انتقل رئيسه إلى دير « كان » Caen . وظل القديس أنسلم فى هذا المنصب خمسة عشر عاماً ، أبدى فى أثنائها نشاطاً كبيراً . فقد كتب كل كتبه الرئيسية أثناء تدريسه فى مدرسة هذا الدير . فألف كتابه مناجاة Monologinm

و Proslogium ثم كتاب فى الحقيقة D : Veritate ثم كتاب « فى التثليث » De Trinitate

والمهم فى تعليم أنسلم أنه أتى بمذهب جـــديد . فبينما كان مواطنه لانفران يدرس عن طريق الكتب المقدسة وحدها ، نرى أنسلم يدخل إلى جانب ذلك تدريساً عقلياً خالصاً . وينتهى الدور الثالث من حياة أنسلم وهو دور الأستاذية فى دير « بك » بانتخابه مطراناً لكنتربرى . وانصرف منذ ذلك الحين عن التدريس والتأليف وانقطع إلى الحياة العامة مشتغلا بالمشاكل التى أثيرت فيما يتصل بالكنيسة والامبراطورية ، وخاصة مسألة النزاع بين البابوية والامبراطورية . وقد أخذ القديس بطبيعة الحال جانب البابوات . وكانت نتيجة ذلك أن نفى إلى ايطاليا حينما أخفقت البابوية . فكتب فى أثناء ذلك فى مدينة اسكافيا بجنوب ايطاليا كتابه : « لماذا صار الله إنساناً » Cur Deus homo واستمر هكذا بين النفى وبين التردد إلى انجلترا حتى مات فى كنتربرى عام ١١٠٩ .

ويختلف المؤرخون فى تحديد أصله . ومنشأ ذلك تعصبهم : فالمؤرخون الإيطاليون يجعلونه إيطالى الجنس لأنه ولد فى مدينة أوستا ، ويستشهدون بالأشعار التى قيلت فى موته . ويقول الألمان إنه أول فيلسوف من دم ألمانى خالص ، لأن أجداده من البرغنديين كما أن أمه لومباردية برغندية — وإن كان من حيث الثقافة فرنسياً ، ومن حيث نهاية حياته إنجليزياً .

العقل والإيمان

شغل القديس أنسلم أول ماشغل بمشكلة العقل . وكانت أحوال التفكير تنقسم فى ذلك العصر إلى قسمين : الديالكتيون فى جانب ، واللاهوتيون فى جانب آخر . أما الأول فقد أرادوا تحكيم العقل فى العقيدة ، وأنكروا

عن هذا الطريق كثيراً من المعتقدات التى تعتمد على الوحى دون العقل مثل فكرة الافخارستيا[1] ، كما أنكروا اليوم الآخر . وبالجملة أنكروا كل الأفكار التى تتصل بالعقيدة من حيث هى عقيدة دون أن تكون قابلة للبرهنة العقليّة . وكان من أشد أنصار هذه الحركة ـ الاسميون .

ثم قامت حركة مضادة شغلت أوائل هذا العصر وكان على رأسها بطرس دميانى (+ ١٠٠٢) الذى حمل على فلسفة أرسطو حملة شديدة كما حمل على الفلسفة بوجه عام . وقال بعدم إمكان مبدأ التناقض وبطلان فكرة العليّة . لأن العلة الأولى والأخيرة هى الله ـ والله حرٌّ حريةً مطلقة . وإرادته يمكن أن تصل إلى حد عدم إحداث ماحدث . وهذه الظاهرة نفسها هى التى نجدها فى الفلسفة الإسلامية فى نفس الوقت عند الأشاعرة .

فقام القديس أنسلم ، واختط لنفسه طريقا وسطا بين الديالكتيين وبين رجال اللاهوت ـ وقال إن الديالكتيين مخطئون لأنه لابد من البدء أولاً بالإيمان وليس العقل بأسبق على الإيمان ، ولايمكن العقل أن يؤدى وحده إلى الإيمان . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قال إن رجال اللاهوت يرتكبون إهمالاً شنيعاً حين ينصرفون عن تعقل مضمون الإيمان ، والواقع أنه لابد من الإيمان ، لكى يتعقّل مضمون هذا الإيمان . وهذا ما يُفْهَم من قوله : إننى لا أبحث من أجل الإيمان ، بل أو من لاتعقل . فهو يأخذ على الديالكتيين ادّعاءهم ، كما يأخذ على اللاهوتيين إهمالهم . إلا أنه يلاحظ أن أنسلم لم يضَعْ حداً

---

(١) encharistie طقس من طقوس الكنيسة الكاثوليكية مدلوله أن يتحول الخبز والنبيذ إلى جسم المسيح ودمه تحويلا بالفعل والجوهر ، بعد تلاوة صلوات وأدعية خاصة .

معيناً يقف عنده العقل بل جعل الميدانين مختلطين . فإذا قلنا إن العقل يبدأ بعد الإيمان ، فهل يستطيع العقل أن يجعل عقلياً كل ماهو إيمانيٌّ ؟ والواقع أن أنسلم لم يكن شاعراً بما شعر القديس توما من بعد ، ألا وهو وجوب التفرقة بين ميدانين : ميدانٍ يشترك فيه العقل والنقل ، وآخر لايستطيع العقل أن يلجه لأنه من اختصاص الإيمان وحده . ولهذا نرى أنسلم لايقف دون تعقل الأشياء التي سيعدّها القديس توما خاصة بالنقل ، فيحاول أن يتعقل فكرة التجسد وفكرة الافخارستية وفكرة الثالوث ، مع أن هذه الأشياء خاصة — في نظر القديس توما — بالإيمان ، ولايمكن أن نبرهن عليها عن طريق العقل .

ويلاحظ أنه إذا لم يكن ثمة وسط بين البرهنة وعدم البرهنة على حقيقة ما ، فإن هناك وسطاً بين تعقل الحقائق وعدم تعقلها ، وهو تعقل الحقائق قدر الإمكان . فإذا رأينا أن مضمون الإيمان يمكن أن يُتعقّل — فعلى الرأس أن ينحنى وعلى العقل أن يؤمن . وإذا رأينا أن العقل لا يمكن أن يؤمن ببعض الأشياء ، فعلى الرأس أن ينحنى وعلى العقل من جديد أن يؤمن . وإذا رأينا أن العقل يناقض مضمون الإيمان فعلى العقل أن يخضع ويؤمن . فالمرجع في النهاية إلى الإيمان . ولكن يخفف من هذا أن يقال إن أنسلم حاول دائماً أن يصل إلى برهنة عقلية ، وإنه قال لهؤلاء اللاهوتيين إن الحقائق لايمكن أن تُدْرَك مرة واحدة ، وإنه مهما فعل آباء الكنيسة فلم يمكنهم أن يدركوا الحقائق كلها ، وإن ماورثناه عن الآباء ليس كافياً مع الكتب المقدسة ، لأنه يؤدى بنا إلى الإيمان . ولو عاش الآباء أكثر لو سعوا الحقيقة ، والعلم والحقيقة ليس بالشيء الذى ينفد ، بل ستتوالى العصور وستكتشف حقائق جديدة باستمرار .

براهين وجود الله

عرض أنسلم براهين وجـــود الله فى كتابين : الأول هو كتاب Monologium «مناجاة» والثانى هو كتاب proslogium . ولنبدأ بالكتاب الأول . ألف أنسلم كتاب « مناجاة » عام ١٠٨٠ م ، وهو أقل شهرة من الكتاب الثانى لأن الأخير يحتوى البرهان المعروف باسم البرهان الوجودى على وجود الله . وبراهين وجود الله الموجودة فى كتاب « مناجاة » براهين ثلاثة ، تقوم على أمرين : —

(ا) أن الكائنات مختلفة من حيث درجة الكمال .

(ب) أن اختلافها فى الكمال إنما يرجع إلى مشاركتها فى كمال أكبر هو الله .

البرهان الأول: يقوم هذا البرهان على فكرة الخير . يقول القديس أنسلم إن الناس يعشقون الخير ؛ والكائنات تصبو إلى تحقيق الخير . إلا أن مقدار الخير يختلف بين الناس . والآن ، فإن كل خير لابد له من علة . فهل هناك علل مختلفة لكل خير ؟ أم أن ثمة علة واحدة لجميع أنواع الخير ؟ الواقع أنه إذا اختلفت الأشياء فى موضوع واحد فإن علتها لابد أن تكون واحدة . فالعدالة الموجودة فى عدة أفراد بنسب مختلفة لابد أن تكون علتها عدالة واحدة تسود الناس جميعاً . كذلك الحال فى الخير : لابد أن يكون مرجعه وجود خير أسمى أو مطلق . وهذا الخير المطلق أسمى من جميع أنواع الخير . ذلك لأنه لابد من التفرقة هنا بين ما هو خير بذاته ، وما هو خير بغيره . ومن الواجب أن يكون ما هو خير بذاته أشرف مما هو خير بغيره . وعلى ذلك فالخير الذى هو علة جميع